

الحدود الفنية لتجربة الشاعرة المعاصرة ، من حيث هي تجربة تقف على طرف موروث شعري عربي ضخم ، فأمر ذلك متروك لدراسة موسعة . ولكن هذه الدراسة تطمع ، فحسب ، بتتبع طرف هام من أطراف ذلك الهاجس الرومانسي ، وهو الطرف الذي يؤكد على « الحلم » ، وما يتصل به ، من الهجرة المتصلة عن ارض الواقع ، ومن أنكار للحضور الحسي للأشياء ، الذي يشكل مصدرا أساسيا لكل حاسة صحية . بحيث يستحيل ذلك الحلم ، لا الى مواجهة لليقظة او للوجود بكل تناقضاته ، بل يستحيل الى بوابة سهلة غائمة للهرب . كما يؤكد على « ضمير الغائب » الذي يملأ فراغا رومانسيا كبيرا في شعر فدوى طوقان ، هذا الغائب يأخذ اشكالا عديدة ، يكون أحيانا « الفارس » وأحيانا « الحبيب » ، وأخرى يظل « ضميرا غائبا » عليه مسحة من الغموض لا دلالة فيها ، فقط باعتباره مصدرا للتطلع وراء الأفق .

ان هذا « الغائب » الذي كانت الشاعرة فدوى طوقان ، تختلقه اختلاقا طيلة السنوات السابقة ، وعلى مدى المجموعات الأربع الأولى ، هو ذاته الذي يصبح بعد حزيران « الفارس العربي » او « الفدائي العربي » ، والذي أهدته مجموعتها الأخيرة « الليل والفرسان » .

( ٢ )

قبل ان أبدأ في تتبع فدوى طوقان شعريا ، أحب ان التي نظرة عاجلة على « صفحات من مفكرتها » (٢) ، التي نشرتها للمرة الأولى كيوميات في مجلة « الجديد » التي يصدرها في العربية الحزب الشيوعي في إسرائيل ، والتي كان يرأس تحريرها الشاعر محمود درويش . عل هذه اليوميات ان تلقي ضوءا يسيرا على تجربة فدوى الشعرية ، وعلى مواقفها الداخلية ، فيوميات المفكرة تظل ، رغم تجربتها العابرة ، ذات صبغة تقريرية عاجلة ومباشرة ، تستطيع ان تقدم خلفية واضحة لمسيرتها الشعرية .

تقول في اليومية الأولى ، في معرض حديثها عن القاصة الراحلة سميرة عزام « بأنها ذكية وعميقة ، غير ان فيها شيئا من الانضباط اللانثوي . . . انها تحلل كل شيء في عقلها ولا تترك الامور للاعماق . تدفن الاعماق ، تغلفها دون النشوة الحقيقية والحزن » . والحزن في عرف فدوى ليس نتيجة لمواجهة عقلية ، بمعنى انه ليس موقفا من الوجود عرفته الفلسفة بمنطقها التحليلي . ولكنه « النشوة الحقيقية » او مرادفها ، ذلك الحزن العفوي الذي يتوالد من منطلق نفسي بحت ، والذي تقف وراءه مجموعة من العوامل الاجتماعية : العلاقات الانسانية ، العائلة ، الطفولة ، القيم . . الخ . وهو حزن دائم دون شك ، لانه لا يرتبط بالتأمل ، ولكنه يرتبط « بالحلم » ، ولانه لا ينبع من وعي مراقبة الواقع ، والاحساس بكل تعقيداته ، بقدر ما ينبع كنتيجة عفوية نفسية لذلك الواقع باعتباره قدرا . تقول الشاعرة في يومية أخرى متحدثة عن أيام صباها ، وكاشفة بوضوح عن هوية ذلك الحزن : « امضيت النهار كله مع — الصديق الغريب — في القدس . قاد السيارة في دروب لم أعرفها من قبل . تحدثنا كثيرا ، وصمتنا كثيرا . . . سألني عن حياتي وأيام صباي الأولى ، فحكيت له عن الكبت الرهيب الذي عشت فيه ، وكيف كانت انوثتي تنث كالحيون الجريح في تفصه ، ولم يكن لها متنفس مهما كان لونه . كل شيء محظور في البيت ، الضحك ، الغناء ، العزف على العود ، وكان هواية محببة لي تعلمتها سرا . كنت أحلم دائما بفتى أحبه . ولم تكن صحبة الفتيات تسليني او تجتذبني قط ، ضحك — الصديق الغريب — حين حدثته ، كيف كان والدي رحمه الله ، يحثني وأنا في هذه الحال من الضغط والكبت والضيق ، كيف كان يحثني على كتابة الشعر السياسي والوطني كما كان يفعل شقيقي الراحل ابراهيم ، فكلما برزت مناسبة سياسية او وطنية طلب مني